❖ **شخصيات**

المقدمة:

بقلم : الأستاذ خليل السكاكيني

قبل نحو ثلاث سنوات أصدر صديقي الأديب البارع الأستاذ حسن مصطفى كتاباً بعنوان " خطرات ريفية " قابلناه في حينه بالإيثار والاستحسان، وتمنينا له التوفيق، وان تزيد وارداته على نفقاته، فيصبح بين عشية وضحاها من الأغنياء، ولكن كنت أخشى أن يهجر القلم فلا يكتب شيئاً لأسباب:

1. لأنني قدرت أنه أفرغ في كتابه ما عنده، ولا غضاضة في ذلك عليه(فأم الصقر مقلات نزور.)

الكتاب أنواع: منهم من لا يكتب إلا إذا كان عنده ما يقوله، ثم يمسك، وآثار هذا النوع من الكتاب قليلة ولكنها نفيسة.

ومنهم من لا يكون عنده شيء يقوله، ولكنه يقول ولا يمسك، وآثار هذا النوع من الكتاب كثيرة ولكنها (ثرثرة أو جعجعة ولا طحن.)

ولا أشك أن صديقي الأستاذ حسن مصطفى هو من النوع الأول، بل إذا عد الكتاب من هذا النوع كان هو في الذروة العليا منهم.

2. لأني قدرت أن طبع كتابه الأول استنفذ كل ما في جيبه إذا لم يحمله ديوناً طائلة، وتحدثه نفسه بعد ذلك أن لا يطبع من آثاره شيئاً إلا إذا كان ينوي لسبب ما أن يعلن إفلاسه.

ولكن بعد ثلاث سنوات طلع علينا وفي يمينه كتابه الثاني وإذا هو صنو الكتاب الأول في نفاسته وجماله، بل هو أقرب أن يكون تتمة للأول لا كتاباً آخر، ولا أشك أن القارئ المثقف يشاركني في إيثاره واستحسانه، وهنا مكان لأن أنصح لصديقي صاحب هذا الكتاب أن لا يهديه لأحد، فإذا فتح هذا الباب ذهب الكتاب هدايا، خير لك أن تأكله الأرض فلا تبقي منه ولا تذر من أن يأكله القراء الكرام وعينك تنظر، (ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، ورأيك موفق ...

1) رجل الشارع

هذا التعبير تسرب إلى لغتنا حديثاً، فجرى على ألسنة البشر، كما جرى على ألسنة الأقلام.
ونحن حديثو العهد بهذا التعبير، حداثة عهدنا بالشوارع، ولو جاز لنا " اقلمته " ، لقلنا: " رجل الحي " أو " ابن البلد " على حد تعبيرهم، أو " أبو خليل " على حد تعبير آخر، أو " تعبان أفندي " كما لمع في جو الصحافة الفلسطينية مرة، أو إلى ما هنالك من تسميات. إذ أن المهم في الأمر – بعد هذه الدورة واللفتة – ان المقصود من رجل الشارع، هو تلك الشخصية التي يمثل طابعها الرجل العادي في كل بلد.
وتشاء الظروف ان يكون الشارع في هذا البلد مثار الإعجاب والتقدير.
ومرسل هذا القول ممن يعتزون به الاعتزاز كله، ولا عجب فالفلسطيني الأصيل جذوره من البادية، وفروعه تطاول قمم الجبال، ورأسه متصل بالسماء.
عناصر ثلاثة واضحة قوية تلعب دورها في نسج هذه الشخصية – شعرت بها أم لم تشعر - : البادية، والسماء، وفلسطين ما بينهما، فالبادية: قلة في المعدة، ووفرة في الإحساس، قحط في المادة، وخصب في الروح. والبداوة في حقيقتها، هزيلة في " مادتها ". والفروسية هي أسمى ما تتيه به البادية من أنماط الحضارات، فأي شخصية هي هذه ، التي تكون الفروسية جذورها؟ أفلا تلمس في الفلسطيني العادي إحساساً مفرطاً في شعوره بالكرامة الشخصية؟ حتى لو أردت أن تعدد متاعبه العادية في الحياة، لوجدت جذورها في هذه الظاهرة النفسانية، التي مردها اعتزاز البدوي بكرامته. أو لم تلمس روح النخوة تسير جنباً إلى جنب، بتوازن وانسجام، مع الاعتزاز بالكرامة، الأولى للدفاع، والأخرى للنجدة؟
ويقطن الفلسطيني بلداً لم تسخ عليه الطبيعة بما يبعده عن خلق البادية وما يلهيه عن رسالة السماء، فهو في بلد يغمس فيه الرغيف بعرق الجبين، ويقرن الكرامة بهيبة اليمين، ويستمد العزاء من روح السماء.
وقد لخص القرآن الكريم ثقل المسؤولية في قوله: " أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً " .
وتشاء الظروف ان يلبس الفلسطيني الأمانات كلها، فلا عجب أن كانت طريقه في الحياة هي " طريق الالآم "، وكانت حياته اللاشعورية صراعاً خفياً بين قيم البادية، وقيم الحياة المعاشية، وقيم السماء.
أيها الفلسطيني العادي الكريم:
كل من يلقاك يقرأ في وجهك هذه العوامل الثلاثة بوضوح، وكأنها تنطق بالنيابة عنك، وتقول: أنا ابن البادية، وابن فلسطين، وابن السماء ...

2) الحراث

يقول صاحب هذه الشخصية:
صورتي ، ظلي في الحقل وما تتركه هذه الكلمة من أثر في نفسك، أيها القارئ الكريم.
قد يقرأ صاحب هذه الشخصية ما يكتب عنه، أو قد يقرأ له ذلك، أو قد لا يعلم مما يكتب عنه شيئاً، ولكننا نستطيع الجزم بأن صاحبنا لا يهتم مطلقاً بالخطوط المسجلة على الورق بقدر اهتمامه بما يشقه من خطوط على سطح الأرض.
هو حراث ابن حراث ابن حراث إلى ما شاء الله، ويعتز بهذا النسب الكريم.

وأظرف من ذلك انه لا يذكر لمولده تاريخاً وفق التقاويم والروزنامات الحديثة ، بل كل ما يذكر أن عمره حوالي 25 حرثة شتوية أو 50 حرثة بما (فيه الصيفية والشتوية) يعني 25 سنة بلغة التقويم أو ربع قرن بلغة المؤرخين.
احتضنه أبوه مع الحقل وهو يفخر بأنه في طفولته تساوى مع الحقل ونبت الطبيعة في العطف، فكان الأب خير عاطف، والحقل خير رفيق.
ولما اشتد ساعده اعترف له أبوه بالرجولة، واعترف له الحقل عن طيبة خاطر بالسيادة، فأراح أباه من العناء، وأتعب نفسه لمن سوده.
لا يعرف من الشهور أكتوبر ونوفمبر ... بل مقاييسه مع الطبيعة يعبر عنها (بالوسم البدري) و (الوسم الوخري) مستعيناً في ذلك بحساسية مرهفة، تكاد جوارحه تكون نشرة جوية، فان دعت الطبيعة إلى العمل أجاب لا متوانياً، ولا متكاسلاً ؛لأن الفرصة تفوت والطبيعة لا ترحم.
ألف القسوة من الطبيعة والإنسان والحيوان، ولكنه في هذا الموسم وهو موسم الأمل والرجاء، يقابل القسوة بالعطف.
لا يعلم شيئاً عن جمعيات الرفق بالحيوان وتعليماتها، ولكن أتدري كيف ينهر دوابه .. ؟
بنهرات تحوم حول البركة، واسم الله، حتى ولو حرنت الدواب، ولا يضربها، وإنما يمسها فقط بعصا طويلة حمل اسمها مدلول معناها " مساس ".
وألطف من هذا وذاك قوله بعد قيامه بواجبه يبذر الحب وهو يقول: " يا ربي أنا أرميه ، وأنت بالغيث ترويه "
يترنم دوماً بأن لا " لبن ولا عسل، إلّا بالعمل ".
وهذه الترنيمات لجده الأول الذي مهد له تلك الأرض التي يحرثها، لقد سمع جده ابن الجبل يقول:
رمتني الأقدار في الجبل فهالني قفره وأطربني ارتفاعه فاستوحشت من القفر ورغبت في الارتفاع، وأخذت أعلل نفسي بأنها بلاد اللبن والعسل، فالجبل قريب من السماء، والدعوة ميسورة والاستجابة أيسر، وقفت على قمة الجبل ، ورفعت رأسي ويدي إلى السماء مستجدياً لبناً وعسلاً، ولكن السماء أحالتني إلى الأرض، فعرقت خجلاً ونشدت القفر أمحو عرق الخجل عني.
أهويت على الصخر أحطمه، فسحقته وحولته تراباً.
وحنوت على ما غرست أسقيه بماء السماء وعرق العمل.
فجاء الزهر بشرى، وجاء الثمر حلاوة.
فرفعت يدي إلى السماء، لا مستجدياً، بل شاكراً، وقلت: رباه عرق الخجل مرارة، وعرق العمل حلاوة.

3) الحطاب

تطل عليك هذه الشخصية أيها القارئ، لتشعرك بالدفء أو البرودة، وهي في كلتا الحالتين تذكرك بأثرها في تقديم أطيب فاكهة لموسم الشتاء، ألا وهي النار.
يقول المثل العامي المشهور: " فرخ البط عوام، وابن الحطاب مقمقش ".
وحطابنا الحالي هو المقمقش سابقاً ابن أبيه الحطاب المقمقش لجده رحمه الله تعالى. ويسهل عليك تتبع هذا النسب الكريم ان كنت ممن يحرصون على تتبع الأنساب.

" والقمقشة" هي الفترة التدريبية الأولى في فن التحطيب، حيث يعدو الطفل وراء أبيه يلتقط أعقاب ما خف حمله وسهل اشتعاله، ولا تنتهي هذه الدورة إلا عندما يقوى ساعد صاحبنا على حمل البلطة، واستعمالها برفق وذوق معاً، وفي هذه الفترة يطلق عليه لقب الحطاب.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة ننفي فيها عن صاحب هذه الشخصية تهمة - طالما الصقت به- حتى صارت من البديهيات المتعذر نفيها، وهي أن الحطاب يهوي بفأسه كما يشاء هو أو كما تشاء هي، والحقيقة أن الحطاب أرفق الناس بالنباتات، حتى لو جاز للإنسانية أن تتطور فتنشئ جمعيات للرفق بالنبات؛ لكان الحطاب أجدر الناس بالانتساب إليها ان لم يكن صاحبها.

فهو أعلم الناس بما يصلح للوقود، وأعلمهم أيضاً بما هو أضمن للنمو، ينظر إلى العود نظرة الجاني للثمر، فلا يقطع من الشجر إلا ما يستحق القطع، إن لم يكن لكرم في خلقه، فلضرورة تتطلبها النار. ولا يبقي من الشجرة إلا العنصر الحي النامي – إن لم يكن لنبل في إحساسه، فلضرورة تفرضها المهنة- تمهيداً للمواسم المقبلة. فهو إذن بريء من هذه التهمة إما بالاختيار وإما بالإكراه.

وقد يسعف الحال صاحبنا فيرتقي في مهنته إلى رتبة أعلى، من حيث التعقيد في المهنة وما يتبع ذلك من زيادة في الدخل والأهمية، كأن يصبح صاحبنا فحاماً، فينتقل من دور القطع إلى دور التصنيف، وفي هذا ما فيه أيضاً من العناء، ولكن فيه من الدغدغة لغروره ما يطربه، كأن يحس بأنه حارس على باب من أبواب النار الصغرى ،وهو يزج في مطمورته (القرامي) زرافات ووحدانا إلى طبقات جهنمه الصغرى ، (المفحمة) وقد أسود وجهه وساعداه، ولمعت عيناه وأسنانه، فبدأ كأنه مارد من مردة النار خرج ليتهوى ويستبرد، أو كأنه فحمة بشرية لم تحترق بعد.

فيا أيها القارئ الدفيء الكريم!

إن كان وقودك في بيتك حطباً يدمع دخانه عينيك، فالفضل في الدفء للحطاب، وذلك الدخان هو الغرامة التي تدفعها مكرهاً ؛ لأنك لم تعترف بترقية الحطاب إلى رتبة فحام.

وإن كان وقودك في بيتك فحماً تتلظى ناره في الموقد، وعينيك تداعب الجمر، ولا تخشى من دخان يدمعها. وأنت وأهلك حول الموقد في دفء تتسامرون، فقل عندئذ " بيض الله وجه الفحام ".

ولا تنس عندما تشعر بالدفء وتتلذذ بطيب فاكهة الشتاء أن (المقمقش) والحطاب والفحام قد أدوا رسالتهم، وهم لا يشعرون ولسان حالهم يقول: " الغصن الحي النامي للإيراق والأزهار والثمر، والجذع المسوس للقطع والحشر والنار " .

ولا تنس أيضاً، ما دمنا بصدد الشخصية والشخصيات، أن تحتاط لنقاط الضعف في شخصيتك، فالحاطبون في غابات البشر كثيرون، (وحمالو الحطب)أكثر ويا ليت في جيدهم حبلاً من مسد. يتخذون من الأطباع المسوسة وقوداً لنار أحاديثهم اللاذعة، أو مفحمة يسودون بها سمعتك.

فاحتفظ لنفسك قبل أن (يحطب عليك) الغير. ولكن قل معي ومع الشاعر:

فنذل الرجال كنذل النبات فلا للثمار ولا للحطب

4) الراعي

الناي والعصا، والقطيع والكلب الكبير، عناصر أربعة تعمل متكافئة ومتعاونة لتقرب الراعي إلى نفوسنا. والحياة بمختلف عناصرها من جماد وحيوان ونبات ومياه وأصوات .. تقدم نفسها في أجمل فصول السنة مسرحاً لهذه الشخصية.
ولست من الثقات في علم اللغة ولكني أقول لعل (سرح) التي نلحقها بالراعي تضفي على شخصيته مسحة روائية على مسرح الحياة، لا لونا من الكفاح المعاشي فحسب، ولا بأس أن نزيد فنقول أن كلمة (راع) في لغتنا العربية فيها من قوة الإيحاء ما يجعل مرادفها في اللغات الزميلة يتضاءل أمام تلك الكلمة. فكلمة (شبرد) جاءت من الخراف ولو ترجمت حرفياً لكانت (خرافي)، ولكن راعينا من الرعاية، والفرق بين مدلول الكلمتين كالفرق بين علف الدواب ورعاية الأمومة.
والآن، فلنعد بعد هذه الشطحة إلى عنصر الناي في شخصية راعينا، ولنذكر قول أحد الشعراء:

أين بتهوفن العظيم ليحكي نغمة بين تلك الجبال

أما الراعي نفسه فيظهر تقديره لنايه عندما تعلم أن (ناي النسر) وهي من عظم النسر، يدفع الراعي ثمناً لها، وعن طيب خاطر، ما يعادل أجره في سنة أو سنتين، وأسجل إعجابي بتلك اللفتة الشعرية ، عندما يتخذ الراعي من جناح النسر ناياً يبعث فيها تلك الأنغام من على الجبال، فتحلق تحليق النسر في الفضاء.
وهذا البلد، بلد الرعاة، يعتز بأنه أول من سجل الموسيقى والأناشيد، ولمس أثرها في تهذيب النفس، فأحاطها بهالة القداسة.
أما العصا فليس أنسب للاستشهاد من قوله تعالى على لسان الراعي موسى عليه السلام " هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ".
ما أجمل كلمة " أهش " تصلح دستوراً لجمعيات الرفق بالحيوان، وتصلح في المستقبل إن نوت الإنسانية أن تؤسس للرفق بالإنسان.
وأما القطيع فكلمة حديثة، والاستعمال الدارج كلمة (حلال) والاقتراب من القطيع يوحي " بمستخرجات الألبان ". أما الاقتراب من الحلال فيحتاج إلى قلب كبير.
قال أحد الرعاة " أرعى غنمي من ثلاث . أرعاهن من اعتداء الناس والحيوان عليها. وأرعاها من اعتدائها على الناس، وأرعاها من اعتدائي عليها" وليس في هذا القول حكمة رائعة فحسب بل روح تنم عن قلب كبير يستره ثوب راع بسيط.
قال شيخ الرعاة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه:
" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".

5) الموظف

تزحف هذه الشخصية أو تمشي، تجول أو تصول في ميدان طرفه الأول " استرحم فأعرض لجنابكم " والطرف الأخير " خادمكم المطيع " ، فهي دوماً تتأرجح بين الاسترحام والطاعة.
وتقترب هذه الشخصية أيضاً من " الملف " اقتراب الأليف من أليفه، وما أن تمضي مدة في السلك الوظائفي حتى تتمازج مع الملف تمازجاً يحير العقول ، فلا تدري ان كان الملف موظفاً " أو الموظف ملفاً متحركاً.

ونختصر فنقول: يبدأ الملف حياته جديداً، ثم يزخر بأوراق شتى ومعاملات متعددة، هذا (وهريانه) يسري حتى تمضي الفترة التي يركن فيها إلى " الأراشيف " ، وهكذا الحال مع زميل الملف، يبدأ جديداً وينمو زاخراً بعناصر شتى، (والهريان) يرافقه، ثم إلى التقاعد حيث (الأرشيف) البشرى.
تحيتنا إلى هذه الشخصية (الملف المتحرك).

6) بائع الفستق

توجه محرر(القافلة) للقاهرة للتصيف ، فهو من المعجبين بمصر ، طالما قال عنها ، " شمس تظللني من الشمس " . فنغتنم هذه الفرصة ، فنقدم للقرأ هذة الشخصية ، محاولين تقليد اسلوب محررنا في غيابه .
مرسل هذا القول يحب فستق العبيد أكثر من الفستق الحلبي؛ لأنه من تنابلة السلطان، يعني يستثقل التقشير، ويحب الفستق المقشر،فلا يلقاه إلا عند العبيد.

وإن كنت في شك من ذلك ففتش جيوبه، تلق رواسب الفستق بين ثنايا البطانة.
وقسم من تنابلة السلطان، (يرمون) الفستق كترف غذائي، ولكن (مرسل هذا القول) أيضاً، يستعمله مسكنًا لصيحات المعدة.
ثم هو بعد هذا وذلك، قريب الشبه في اللون من بائع الفستق.
ومع هذا يقول: " فستق العبيد لا يصلح غذاء للأحرار "

7) بوليس المرور

اطلع معي أيها القارئ على الرصيف ، ودع شيخ الشارع على منصته يشير إلى الغادي والرائح، وتعال معي نسر أو نراقب من يسير.
هذا رجل يندفع إلى الأمام بخطى سريعة، وقد أدار عنقه إلى الوراء بلفتات أسرع، وآخر يتباطأ في زحفه وفي اتجاه لولبي، وثالث يمشي مكباً على وجهه، وآخر يمشي سوياً على رصيف مستقيم.
وهذه شلة من القوم استطابوا الرصيف مكاناً لعقد مؤتمر (وقافي)، وراحوا يشيرون بأيديهم ، ويؤكدون القول بخبط الأقدام، فينافسون بوليس المرور في حركاته، ويخالفون في سد السبل على المارة وازعاجهم.
وهذا يحمل على رأسه ما يكفي سقفاً يستظل به ثلاثة من المارة، ويزعق " يا كريم ". وآخر يعتل على ظهره ما يأخذ من الرصيف نصف عرضه، وبوقه (أوعى .. ظهرك .. حاسب) ، وآخر جفل من الشارع هو ودابته، فراحا على الرصيف يدافعان الناس، وهذا صاحب دراجة قفز من الشارع إلى الرصيف يحملها كما يحمل " المجلخ " دولابه أو يدفعها أمامه، وهذه حسناء تمشي منسابة وسط المارة ، وتلك عجوز تدب وتتعثر ويعثر بها الناس.

وهذه سيدة فاضلة خرجت بابنها في عربته، وكأنها تتعجل عليه السير في زحام الحياة، وأطفال ملأوا الرصيف، ولا تدري أنى مأتاهم كأنهم نجموا من الأرض: و ... و ... و .... إلى ما يوصف ويحصى فللرصيف حالاته ومواسمه.

ولكن قل لي أيها القارئ: ألم ينطح رأسك رأس غيرك وأنت تمشي؟ ألم تحتضن أحداً مكرهاً؟ ألم تمش مراراً إلى الأمام، ورأسك في الناحية الأخرى، وما أن يعد حتى يصطدم خشمك بكتف من يواليك؟ .. ألم؟ .. يقع لك أشياء وأشياء؟

ان كنت تستحي أن تقول: نعم، فقد وقع لمرسل هذا القول أشياء كثيرة: منها ان صدم صبياً حافي القدمين فداس على قدمه، ووقع الصبي على الأرض، فانحنى عليه ينهضه، فقام الصبي يحجل على رجله ويمسك بيديه رجله الأخرى وهو يقول: " ما تفتح يا عم هو انت ماشي بالمقلوب ؟!"

- " نعم يا عم بالمقلوب " قلتها وقد سرى الطفل ، ولعله ضحك ان رأى هذا (التراك البشري) يعترف بانه ماشي بالمقلوب.

ولكن ما العمل والسير على الرصيف لا يحتاج إلى " رخصة " والأخطار تنتهي باعتذار أو أسف أو شجار بسيط يتدخل بعض المارة في الصلح أو " الفرجة ". إذا كان هذا هو حال الرصيف فما بالك بالشارع، وإذا كان هذا هو شأن من يمشي على اثنتين فكيف بمن يدحل على أربع؟

رخصة السير على الرصيف تفرضها الآداب العامة ، والمخالفات التي تقع طفيفة، وان تحرجت فالبوليس حاضر ليستدركها، أما رخصة " الدحل " في الشارع فتفرضها الكفاءة على دائرة الترخيص، والمخالفات ان وقعت نتائجها حاسمة، خطرة، وخاطفة، وبوليس المرور هناك للتنبيه والإشارة والتوجيه، وفي ذلك مفتاح سر شخصيته.

فلا تته إذاً يا بوليس المرور إعجاباً بقوة شخصيتك. فالمنصة التي تحت قدميك فرضتها أنظمة المرور، كما فرضت ارتفاع الرصيف عن الشارع، فلو ارتفعت قليلاً عدت لا ترى، وان انخفضت عدت لا ترى، ولو تخطيت المنصة عدت لا تصلح، هذا إذا الله سلم.

والشارات التي تحلى بها ساعديك بيضاء ناصعة تسر وتستلفت النظر، هي أيضاً مما تفرضه أنظمة المرور، كالشارات البيضاء على الشارع نفسه، أو على حافتيه أو كالدهان الأبيض على طرف السيارات.

وإشاراتك التوجيهية يطيعها الناس لا خوفاً منك ، بل من الخطر المحقق، ولا يخالفك المارة خوفاً من شخصيتك ، بل لانفرادك في مكان ترى ما لا يرون، فكأنك ضابط ارتباط بين المنظور والمستتر.

وأجمل من ذلك كله أنك تقوم بعملك سافراً وعلى رؤوس الإشهاد.

أيها البوليس:

ما أنبلك سافراً وما أغمضك وأنت مستتر

لو سار الناس في الحياة كسيرهم في الشارع؛ لسفرت لهم، وكنت في سير الحياة، كبوليس المرور، ضرورة فنية فقط للتنبيه والإشارة التوجيه.

8) ساقي القهوة

(وطنطن) الساقي بفنجانه، فارتخت أذناي وأدرت رأسي نحوه، وشفتاي تتنملان وكأنهما تقولان: لبيك أيها الفنجان لبيك، كان هذا مساء وصاحب هذه الشخصية لا يظهر إلا ليلاً، أو في الصباح المبكر، في الليل يسير

إلى منتصفه أو يزيد عليه قليلاً، إذ لليل رجالاته وصعاليكه وسماره. وفي الصباح المبكر يجوب الشوارع، وللصباح سراته وسعاته.
يعجبني صاحب هذه الشخصية إعجابي بما يحمل، ولو جاز لي أن أوزع الألقاب على من يسيرون؛ لأعطيت ساقي القهوة لقب (جنتلمان الشارع). فقد يكون رث اللباس، وقد يكون غريب الصورة، في مجموعه مخالفاً لأنظمة الصحة، إلا أنه يسلك مع الناس سلوك (المحلي) الغانم في مجلس من مجالس الأجاويد، فهو يقدر قيمة ما يحمل، كيف لا! وهو يحمل القهوة، رمز الكرم والكيف؛ فلذا تراه يصبها بذوق ورشاقة، ويمدها للشارب بأدب وحشمة، ويمهله بصبر واناة، حتى إذا ما أتى الشارب على آخر الفنجان أشار الساقي بإبريقه ما يفيد معنى الاستمرار، فهو لا يتوقف إلا إذا أومأ إليه.
ثم بعد هذا أو ذاك لا يمد يده إلا عندما يهم الشارب بإعطائه ما فيه النصيب.
أيها الساقي
نعم المؤنس أنت، صوتك لا يرتفع، ويدك لا تمتد، ولسانك وقلبك يحوطان القهوة وشاربها بالعوافي وأطيب التمنيات.
أما أنت يا سمراء، فقد قال الناس عندك ما قالوا، وروى الشعراء فيك ما رووا، فلم يبق لمرسل هذا القول إلا أن يعترف بأنك في خدرك زينة المجالس، وخرجت مؤخراً إلى الشارع مع من خرجن ، فكنت عروسه المحتشمة ، يرعاك الساقي بيمينه ، ويرقص لك الفناجين بيساره ، وتزفين لشفتي الشارب محلاة مبهرة.
فنعما انت ايتها السمراء مخدرة، ونعما أنت بارزة سافرة.

9) بابا عيد الميلاد

هذه الشخصية يقربها خيال الطفولة إلى الواقع بقدر ما تبعدها واقعية الرشد عن دنيا الحقيقة. فقد جبلت مخيلة الطفولة، من ضباب الخيال، جسماً لتلك الشخصية وأودعته روحها فبدت شخصية حية تتجلى في العالم مرة واحدة.
فلنتصاب ونحتفل معاً بهذه الشخصية، إن لم يكن إكراما لبقايا عناصر الطفولة فينا فليكن لمبدأ " من كان له صبي فليتصاب له ".
يلد بابا عيد الميلاد في مخيلة الأطفال شيخاً، وهو كما ترى ميلاد قصير خاطف قريب إلى نفس الطفل، وشيخوخة يتبدى الحنان في وجهها، والكرم فيما تحمل، وأجمل معاني العدالة والإهداء فيما توزع.
اكتسب صاحب هذه الشخصية مع التواتر جيلاً بعد جيل مظهراً برز فيه " الطنطور " أو " البع " المتدلي والعباءة الحمراء يلتف بها وهو يهبط، كالمظلي، إلى سرير الطفل، وفق الخطة التي ترسمها محيلة الطفولة حيث يتسلل بابا عيد الميلاد إلى البيت ليلاً من المدخنة يحمل الهدايا لبخبئها في جوارب الطفل حتى يفاجأ بها عند الصباح أو يضعها خلسة في حضن الطفل حتى إذا ما استيقظ في الصباح أخذته الدهشة وشمله السرور.
وقد تتعدد الروايات عن هذه الشخصية وفق ما ينسجه الخيال، ولكن المهم في الأمر أن الحنان والإهداء وإدخال المسرة إلى النفوس هو أبرز ما في شخصيتنا هذه.
ومرسل هذا القول يقدم إليك اللمحة القصيرة عن هذه الشخصية لا بوحي من خياله بل " بالإعارة والتأجير " ، وهو يذهب إلى أبعد من هذا فيصارحك بأنه في طفولته لم يسعده الحظ " ببابا عيد الميلاد " وإنما عانى الأمرين من " بابا الغول " و " ماما الغولة " أيضاً.

ويا ليت ذلك كان مرة واحدة في العام، بل في الليلة الواحدة مرات ومرات. ولكنه يذكر طفولته بالخير ويتمنى لو تلاحقه كجزء من شخصيته.
فالحياة إن كانت طفولة، فهي جهالة رغم براءتها.
وإن كان كلها شباباً، فهي طيش واندفاع رغم قوتها.
وإن كانت كلها شيخوخة، فهي جفاف لا يطاق، رغم حكمتها واتزانها.
ولكن أنى للإنسان في وقت واحد: براءة الطفولة، وقوة الشباب وحكمة الشيخوخة؟

10) سن العقل

لا تستغرب أيها القارئ ان اخترت لك هذه الشخصية، وهي شخصية مؤلمة، ومتى كان العقل مريحاً؟ وسن العقل أعنيه حرفاً ومعنى. السن (ضرس) و(العقل – صد الجنون) .
ولست من الثقات في طب الأسنان ولكثرة ما تقلع من أسناني صرت شبه ثقة، بل أذهب أبعد من هذا وأقول وصرت خبيراً بأنياب الآخرين وقديماً قديماً جداً قالوا:
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ولم يشقني الحظ باستهلال مريح في هذه الحياة بقدر ما أسهدني باستهلال وسير متعبين فلم أفلح في أن أصانع في أمور كثيرة أو قليلة ولذا ضرست بأنياب وإن كنت لم أوطأ بمنسم.
ثم نعود بعد هذه الشطحة فنقول:
تولد هذه " ألسن " بعد اكتمال الأسنان الأخرى " سن الحليب " و " سن العين " وبقية الأضراس " والطواحين ". . . فهي في توقيت النمو وآخر ما يبرز أو يولد (إن شئت). وهنا أبدي إعجابي باللغة العربية في اقتران معنى السن (الضرس) بالسن (العمر) إذ يقول أطباء الأسنان أن بدء نمو هذه " السن " دليل قاطع على انتهاء فترة المراهقة ومن هنا سميت " بسن العقل ".
ومكان هذه " السن " يأتي في آخر رتل من الأسنان، فعناية الخالق تحتفظ لها بالمكان المناسب حتى يحين موعد بروزها.
وتبرز شخصية هذه (السن) عندما تنذر بالنمو، فليكن هناك ألم يناسب مكانة هذا المولود وليرقص صاحب " السن " ألماً، فذلك لن يجديه، فالسن محصنة في آخر الفك، وقلعها بسبب كارثة يهون ألم نموها بجانبها، إذاً فليتورم الخد وليلفظ اللسان ما شاء من شتائم أو ولولة واستدعاءات، ولتضطرب الأسنان الأخرى بجوارها. فذلك لن يجدي أيضاً، لأن سن العقل تنمو.
لتوضع اللبخات و " اللزقات " وسائر المخدرات فكلها لن تجدي لأن " سن العقل " تشق طريقها. وإن هي إلا بضعة أيام حتى يخف الورم وتهدأ الأسنان ويروق اللسان، ويعود الفك سليماً وتعود الراحة إلى صاحبه.
ولا تنسى أيها القارئ أنك إذا اعتبرت أي مجتمع كائناً حياً، ففيه من الأسنان وأنواعها مثل ما في فك الإنسان مع تجاهل " الطقم العيرة " طبعاً. فهناك " سن العين " وهناك " سن الحليب " وهناك " سن الذهب " وهناك الأضراس والأنياب والنواجذ. وهناك " سن العقل " أيضاً.
ثم لا تنس أن " سن العقل " ألمها بشير بالنمو واجتياز مرحلة، فاصبر عليه، " والسن المسوسة " ألمها نذير بالفساد ، فبادر إلى اجتثاثها.

11) العالم الجديد

تطالعنا يا عام، كإخوانك السابقين في كل دورة من أدوار الفلك، بوجه سافر واضح صريح.
ونستقبلك كما استقبلنا غيرك، بوجوه مقنعة، ونصف سافرة وملونة.
والصدق، يا عام مرارته حلوة وعنقه لين، والكذب- كما لا يخفى عليك وقد يخفى على غيرك – حلاوته مرارة ولينه قسوة.
فخذها منا كلمة صادقة سافرة ، تحلى بها مطلعك وتحلى بها استقبالنا إليك.
فاسمع، ثم تعال نتحاسب:
تروي الأساطير فيما روت، ان عبداً من عباد الله الصالحين، طوحت به الأقدار إلى بلد ناء، كله غرائب وعجائب، ولكن أغرب شيء أدهشه مقبرة المدينة، فقد رأى فيها قبوراً فخمة مزركشة، تحف بها حدائق جميلة، ولكن استوقفته العبارات المنقوشة على تلك القبور: هنا يرقد فلان ابن فلان ، ولد عام كذا، وتوفي عام كذا ، وعمره ثلاث ساعات.
وهذا فلان ابن فلان ولد في سنة كذا وتوفي سنة كذا ، وعاش نصف ساعة.. وهكذا..
وراح صاحبنا بعد ذلك مذهولاً، يستفسر معنى هذه التواريخ، وأخيراً قيل له: بأن أهل هذا البلد لا يقيسون الأعمار بمرور الأعوام، بل بالساعات الجميلة التي يحيونها، فانفجر صاحبنا صائحاً وقال : ما اعقل هذا البلد، فأن مت هنا فليكتب على قبري – هذا فلان ابن فلان عندما ولدته أمه تخطى المهد إلى اللحد.
أسمعت يا عام؟!
ومع هذا كله فأهلا بك وسهلاً، نعمل لك التقاويم المزخرفة، نزين بها الجدران، ونحمل في جيوبنا وفوق قلوبنا مفكرة منمقة ، تحوي تفاصيل أيامك، بيضاء بعد لم تسود، والبعض منا يذهب أبعد من هذا فيزخرف التقاويم والمفكرات ببعض المبادئ الفلسفية يستعين بها على تحملك.
فهذا يقول : " نعيب زماننا والعيب فينا ".
وآخر يردد:
وصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
وثالث يختصر الأمور فيقول: " لا تحمل هم سنتك في يومك ".
ويتبعه رابع يجمل الأمور فيقول: " كن جميلاً تر الوجود جميلاً ".

أما الخامس فهو كاتب هذه السطور يقول مع الأحنف بن قيس سيد بني تميم:
" ما مضى من الدنيا فحلم، وما بقي منها فأماني "
أيها القارئ الكريم:
حقق الله أمانيك.

12) أسبوع المستقرضات :

يعجبني خيال العامة، فهو مهما انطلق، وأينما اتجه، ما زال مربوطاً بجذور الواقع، محاطاً بهالة من التشخيص ، ومحلى بطرافة أو متعة، بهذه الروح نرحب بما تنسجه الخرافة: من أن بدوية استقلت مطر شباط

في عام ما: فراحت تتحسر وهي تقول " مر شباط الخباط ما بل لا نعجة ولا شعواط" فسمعها شباط ، وكان في الخامس والعشرين من عمره، ولحظ قصر المدة الباقية له ، وحز في نفسه وقع شكوى تلك البدوية، وآلمه هذا النقص في عدد أيامه، فاضطر إلى الالتجاء إلى أخيه آذار مستنجداً " آذار يا ابن عمي ، أربعة منك وثلاثة مني ". صب فيها كل ما قدر عليه من مطر وبرد وثلج، فأروى الأرض ، وطفحت السيول حتى جرفت ما عند البدوية من حلال ، وراح هذا الأسبوع في الفصول السنوية يدعى : "بالمستقرضات ".

ولعل هذه الظاهرة الواضحة في شهر شباط، هي التي أوحت إلى المواطن الأصيل نسج هذه الخرافة، وعقد هذه التسوية بين الشهرين، فتنتهي بهذا القرض الموفق، حتى تعقد الآمال على استدراك الغيث والفرج، فشهر شباط دون باقي الشهور الشمسية ناقص العدد، فقد يجاهد حتى يصل إلى أربع سنوات إلى أن يصير 29 يوماً، ولكنه ما يكاد يسجل ذاك الرقم القياسي حتى يهبط فيعود كالمعتاد، ويسهل على علماء الفلك تعليل هذه الظاهرة، لكن العقلية الشعبية الواقعية تجري وراء تلفيق الأمور لا تعليلها.

ولعله يسرك أن تعلم أن مرسل هذا القول ، يرى كل أشهره شباط، وكل أسابيعه مستقرضات، بل يذهب أبعد من هذا القول ويقول انه، وهو يكتب هذه الكلمة، كان ممسكاً بالقلم بيد، واليد الأخرى تداعب جيبه الخاوية، فقد التفت إلى هذا الأسبوع وأهميته لا بوحي من الموسمية، بل بوحي من جيبه، ولو جاز له ان يستنجد لقال: " الدهر يا ابن عمي، كله منك ولا شيء مني " .

13) كلية بيت حنينا

اعذرني أيها القارئ، ان شطح بي القلم ، وانزلق بي اللسان، فأنا وثني المذهب في ما يختص بعبادة المعاهد والمشاريع النبيلة، كافر زنديق في ما يختص بعبادة الأشخاص والمشاريع الوهمية، حتى ولو توفرت النية الحسنة، (فالتيسنة)كفر، والنية السيئة سخط، وقانا الله شرهما.

بهذه الروح، أزف إليك بشرى هذا المولد الجديد الذي جاء اثر مولود العام الفائت، فكلية بيت حنينا تلحق بأختها كلية سلوان مزهوة مختلطة.

ولدت هذه الكلية من أبوين كريمين ، أما (الأم) : فهي الفكرة الصائبة النبيلة التي ترى أن النبات الذي لا يتغذى من جذوره لا محالة صائر إلى الذبول فالموت، أما (الأب): فهو العزم الذي لا يعتريه في الطريق السوي أي ملل، وأما (المرضع) يا سيدي القارئ - إن كنت ممن يهتمون بالشؤون العامة- فالسيدة الكريمة النخوة، والعزم القوي، والفكرة الصائبة ، والنخوة الكريمة هي: العناصر الثلاثة في هذا النجاح الخاطف ؛ لهذا المشروع الكريم الذي تحقق في فترة أقصر من عطلة مدرسية.

ولا غرابة أن يولد هذا المولود على سرير قيمته 30,000 جنيه، وهو قطعة الأرض التي وهبها أهالي قرية بيت حنينا مهداً لائقاً بهذا المولود الكريم.

وأما النفقة التي تستلزمها حياة هذا المولود، فعلمها عند من هزته النخوة؛ ليهز بدوره هذا المهد.

14) مدرسة المالحة

ها هي قرية (المالحة) ، تحلي نفسها بهذا المعهد الكريم، فتبدي لك زينتها، إذ تقدمه إليك أيها القارئ ، فمتع نظرك وقلبك، إن لم يكن إكراماً للمالحة، فإكراماً للفكرة الحلوة التي ترى أن نبل الشخصية لا يتجلى إلا إذا انعكس أو تقمص في مشروع نبيل.

وأنبل من ذلك كله، ان هذا المعهد الكريم، يمثل مجهوداً عاماً تشرفت عناصر القرية بالقيام به، فأطفال المالحة ونساؤها، شبابها وكهولها وشيوخها، كلهم ساهموا بما يقتضيه الواجب، وما تدفع إليه النخوة، فتم هذا العمل في فترة تكاد تكون خاطفة في حياة الفرد، فما بالك في حياة القرية؟!

وقف صبي منذ ستة شهور في حفل مدرسي، وقف هذا الصبي وهو لم يتخط الثامنة، حافي القدمين، حاسر الرأس، بوجه كله إشراق وحيوية، يدعو أهله وعشيرته صائحاً (نريد مدرسة جديدة،لنحيا حياة جديدة، فهل أنتم فاعلون؟) .

ثم نزل عن المنصة، وقد زاد وجهه إشراقاً، ولعل نفسه البريئة أحست بأن القوم قالوا : " لبيك أيها الجيل الجديد لبيك ".

كان- وهو نطق الطفولة الصادق المؤثر- الهزة البسيطة التي دعت إلى وضع هذا المولود الكريم، وعندما تعمل النخوة تسير بلا حساب، وهكذا سار القوم في مشروعهم ينمو –كالنبت- نموه الطبيعي، تمده الجذور بالغذاء في صمت وتؤدة، فلا فن ولا كلفة، بل ابتعد القوم عن التخطيط والخطط، فارتجلت المكرمات ارتجالاً، وابتعدوا عن الفن والتفنن، فتخطوا سباق الحواجز، بأسلوب : هو السهل الممتنع في الحياة.

وشاءت العناية أن يكون هذا المولود مدللاً ، ولكن بلا فساد، فقد حظي بعطف الطفل والمرأة والشباب والكهول والشيوخ.

صوت الطفل دعا، فاهتزت الأمهات طرباً، وسجلت المرأة في هذا المشروع فخراً، ترنمت (الدفاع) به في " وجدانياتها " . انتخى الشباب فأمدوه بالمال والعزم ، وجدد الكهول شبابهم بطفح من المساعدة، وأيقظ الشيوخ أريحيتهم، فاحتضنوا المولود ودعوه، فصار يعتز بكل عناصر القرية، وصار كل حي في القرية يرى جزءاً من نفسه في هذا المولود، ولا غرابة أن يتخطى المهد ، ويحبو ويقف بعد شهرين اثنين، بل وينطق شاكراً لأهله صنعهم قائلاً: " أنا منكم وإليكم " فان سار أولو الأمر معي فأهلاً وسهلاً، وإلا فالسواعد التي رعتني أقوى من أن تخذلني ..

15) الشجرة الخالدة

رفعت زنبقة الخريف رأسها، وأطلت به من شقوق الصخور وقالت للزيتونة وهي ترتعد راجفة: أي ذنب جنيت حتى انهال البشر عليك بتلك العصي الغليظة الطويلة، يجدون فروعك، التي طالما اتخذوها رمزاً للسلام- بلا شفقة ولا رحمة- ودموعك الخضر تتساقط كالزمرد على الأرض، يلتقطها الأطفال والنسوة بجشع وفرح عظيمين؟ يا لله ما أجمل صبرك؟!

فقهقهت الزيتونة، واستغرقت في الضحك ، ثم قالت: " أنا بنت الشقاء، وربيبة القسوة، ورفيقة الجفاء، وزميلة الدهر، لا أذكر لمولدي عهداً، فقد تسربت جذوري في الصخور، كما تسربت في أعماق الزمن، وعادت القرون في حياتي كالدقائق والثواني في حياتك، عاصرت الرسل و الطغاة، وخلدتني الكتب السماوية

والرواة، أنا أنمو في الشقاء، وانتعش في القسوة ، وأدر في الشدائد كما تنمين أنت في الرطوبة، وتنتعشين في الظل، وتزهرين على الندى ، هل تعلمين أن لتلك الدموع الزمردية جسماً وروحاً؟!
ان دقوها بالحجارة، وحبسوها في الماء، عادت لهم غذاء. وإن عصورها في معاصرهم الجبارة، خرجت روحي في العصير، فروحي غذاء ونور، وجسمي المهشم نار، سمعت أحد الحكماء يقول: " الخلود ربيب الشقاء، وأنا الشجرة الخالدة ".

16) شجرة عيد الميلاد

غابت الشمس، وأخذ الليل يتكاثف شيئاً فشيئاً، وقد لف الغاب الهادئ بجلبابك الحالك، وأوت الطيور والحيوانات إلى أوكارها، وسكنت ريح الشتاء القاسية، فبدأ الغاب في هدوئه وكأن أشجاره راقدة.
انتفضت (قصفة) السرو قلقة فرحة، فتساقطت قطرات الماء على أمها السروة، فقالت الشجرة الأم: " ألا زلت صاحية يا بنيتي؟ نامي فالجر قريب".
فقالت (القصفة): " لا أستطيع الإغفاء من شدة الفرح يا أماه، فغداً سيحملونني إلى الصالات ويزينونني – كما سمعت من زميلاتي- كالعروس، وينعمون علي بلقب شجرة، شجرة عيد الميلاد، فأزهو ولو مرة في العمر، كملكة الصالة، كما تزهين أنت كعروس الغاب ".
وانقطع الحديث، وغفت الأم والبنت ولم يستيقظا إلا في الصباح الباكر، عندما تمايلت (القصفة) تحت طائر يغرد أغرودة الصباح، فطربت القصفة ، وذعرت الأم، لاسيما وقد رأت الحطاب قادما ليهوي ببلطته ، ويفصل البنت عن الأم.
البنت فرحة ولو أنها تشكو ألم القطع، والأم حزينة تشكو ألم القطع والفراق معاً ، قالت الأم (للقصفة) بعد أن انفصلت عنها: " وداعاً يا ابنتي، وداعاً إلى الأبد، فقد صرت شجرة، ولكنك لم تنفطمي ولن تنفطمي، وعندما تذوين ستذكرين قولي .."
ولكن الحطاب كان قد ذهب بالشجرة الصغيرة، ولم يسمع قول السروة الأم ، ولا زفرتها الوداعية، إلا جاراتها السروات المجروحات.
وها هي شجرتنا الصغيرة الفرحة تروي لنا خواطرها: " أأنا في حلم ، أم أنا صاحية ؟! ليت أمي بجانبي لتراني وتشاركني في غبطتي وفرحي ، جذعي في التراب، وكأني مربوطة بأمي، لكني أحس بذبول خفيف يسري في بدني، آه ما أحلى انتعاشي وأنا أهتز طربا وأمي ترقصني على رأسها، في غابنا الواسع! الناس حولي يرقصون، آه لو أستطيع أن أقفز وأرقص معهم، لكن لا ، لا أخشى على زينتي أن تتبعثر، ها أنا أزهر ألواناً مختلفة، آه لو كانت أمي ترى الثمر الذي أحلى به: انه ثمر ملون مشرق كألوان الأزهار التي عهدتها في الغاب مبعثرة عند أقدام أمي وخالاتي، والتي طالما تمنينا أن ترتفع إلينا أو نهبط إليها!
ولكني أحس بأني لا أغذي هذا الثمر، بل تغذيه عروق أشبه بعروقنا، معشر النبات يسري به دفء ينتهي بنور يشع في تلك الثمار، ولكن شتان ما بين دفئه ونوره، وبين دفء الهتنا الشمس ونورها، ولكنه دفء ونور، على كل حال، حبذا لو أحست بهما أمي!
ها هم الراقصون يقتربون مني .. رباه ماذا أسمع؟ أصوات تكاد ترقص أوراقي طرباً .. ولكن أين تلك الطيور التي تبعث تلك الأنغام؟ لحن الغاب أحن، وأقرب إلى نفسي بل وأقرب إلى جسمي.

كنت منبراً للطيور المغردة، لا أقيدها ولا تضايقني، تطير عني فرحا،ً ويبقى غصني بعدها يتماوج طرباً وفرحاً، لقد اقترب مني الراقصون، ها هو ثوب أحدهم يعلق بأوراقي، آه لو كانت أمي معي لتمنت لأوراقها نعومة ذلك الثوب! ولكن ما لأنفي ؟ أكاد اختنق من عنف الرائحة المعطرة القوية، لا لا شذا الغاب خفيف على الأنف، يهديه النسيم إلينا عندما تتمايل الأزهار فتذروه بكرم معتدل، ذهل الراقصون عني وضجرت منهم، وها أنا أحس وسط هذا الصخب بغربة موحشة، زاد ذبولي .. أحس أني في غيبوبة، رباه أين ذهبت الأضواء؟ وأين ذهب الناس؟ وأين ثماري المشرقة؟ انه الظلام .. الظلام الخانق فلأنشد النور في السماء، ويلاه لا سماء ولا نور، أين سماء الغاب وأين نجومه ترعاه وترعانا؟!
ليت أمي بجانبي ، آه يا أماه أنا احتضر، كل ما مضى فحلم فارغ ! أنا لم أنفطم ولن انفطم، فقد حرمت جذورك، فبدأت أحس بالجفاف والذبول، ولم أقو على رفع رأسي إلى الماء والنور! ليتك هنا يا أماه لتسمعي وصيتي ! سأطلقها الآن عساها تنقل إليك، " من لا جذور له لا سماء له ".

17) القـط

لا عجب أن يتيه القط في شهره، ولا بأس أيضاً أن نتعرض لهذه الشخصية بهذه المناسبة، يدنو هذا الحيوان من البيئة البشرية دنوا لا يخلو من تناقض وغرابة ، شأن البيئة البشرية نفسها، فهو طور آلف مخلوق يترسب إلى حياة البشر البيتية، فيشارك أطفال البيت في الأطاييب من الغذاء، وينعم بالوثير من الأثاث و الرياش، إما بالإجازة والترخيص، وإما على (الطريقة السوداء) ، وقد ينال الحظوة، فيشارك الصغار في الدلال والتسمية، ويصبح في البيت واحداً من أفراد العائلة المدللين، وطورا تقع عليه النقمة من كل الجهات، فهذا صبي يشده من ذيله ويذيقه ألوانا من العذاب، وآخر يرميه فيصيب منه مقتلاً – ويتهيأ له أنه قد مات – ولكن سرعان ما يعود القط إلى حياته الأولى، وكأن شيئاً من هذا لم يقع، وثالث يبلغ به الغضب إلى حد أن يتناول القط من رقبته، ويقذف به من علو شاهق، ويتهيأ له أنه قد استراح منه، وإذا بالقط يعود بعد حين وقد دفع الباب برأسه، وأطل بعنقه من الشق ، عيناه تلمعان ، ومواؤه كأنه استرحام واستفسار، آخ والإنسان بعد هذا يهز رأسه – وكأنه كشف أمراً ذا بال – يهز رأسه وهو يقول: " صحيح أن القط على سبع أرواح "، وبعض البشر يخلطون بين " رأس القط " . " ورأس كليب ". " فرأس كليب " عزيز المنال و " رأس القط"، احتل في أدبنا الشعبي مكانة، بين روايات شكسبير ، غير أن للقط حالتين. يستنمر في الأولى، ويستأسد في الثانية، يستنمر عندما يرى فأراً، فيثب ويهاجم، يتقدم ويتراجع، يلطم ويتلبث، وهو واثق كل الثقة من ضعف خصمه وقدرته على الغلبة، حتى اتخذ البشر من ضعف الفأر لا من قوة القط مثلاً رائعاً (غاب القط، العب يا فار)، ويستأسد صاحبنا عندما يحرج، ويرى أن لا مفر، بعد أن يختبئ هنا ويحتمي هناك، ويثب يمنة ويعود يسرى، ويدور ويلف بمواء كله استغاثة، ولكن من غير جدوى، فيربض حينئذ فجأة، ويحملق في وجه الشخص، ولا يتراجع، وتتغير نبرات همراته من الاستغاثة إلى الغضب، فينتصب إذ ذاك وقد وقف شعر جسمه، واحمرت عيناه، وبرزت مخالبه، وهم بالوثب حتى لو فتحت باب الغرفة لما انسحب، فإما أن تتركه وشأنه وإما أن تعرض، على الفأر نمر ولكنه في الدفاع أسد، وشتان ما بين الحالتين.

18) الصبور الحاقد

جمل ... مط وقل جملاً، فخم وقل جملاً، قل جملاً وإملأ فمك، فهو ملء الفم، ملء السمع، وهذا الحيوان أيضاً " ملء العين، ملء القلب " وقديماً أعجب طرفة بن العبد بالناقة فخلدها في معلقته، فكانت للناقة خير زينة، وليست الناقة كالجمل، وليس الذكر كالأنثى.

وحديثاً أعجب " توفيق الحكيم " بحماره ، فاتخذ منه رمزاً للصبر، واتخذ منه مستشاراً (يقول له) ما يشاء ولم يبق إلا أن يقرب بين الحمار وبين الميكرفون، ونسي أن الحمار يرفس، ونسي أيضاً أن الصبر يبعد عن البلادة بعد الجمل عن الحمار.

جاء في " المثل المنظوم " عن شيخ يبكي جمله قبيل الوفاة قائلاً:

جملي يا جملي كم ... لك قد اخلصت ودي
كيف أنساك وأنسى الـ ... جمل الحافظ عهدي
فأجاب الجمل الجبـ ... ار في كبر ووجد
كل ما قلت صحيحاً ... كنت في عز ورغد
غير أني لم يرقني ... عمل أوجب حقدي
عمل أوغر صدري ... عمل ضيع رشدي
قائدي كان حماراً ... خلفه أمشي كعبد
بزمامي ذيله كم ... قادني من دون جهد
أنت من حكمة بي ... ربما عن غير قصد
أنا لم أصفح ولن أصـ ... فح عن هذا التعدي
أنا ان بوئت لحدي ... ذاك خير لي عندي

19) الإنسان الممسوخ

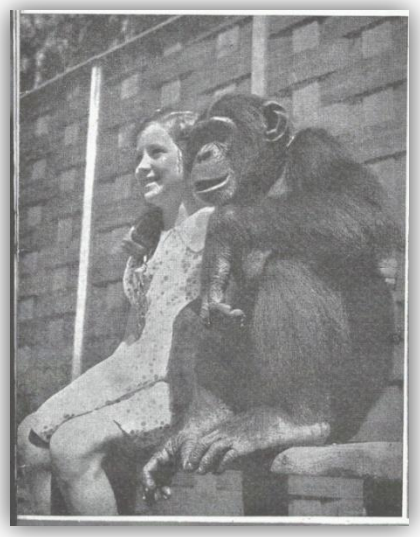

التفت، أيها القارئ، إلى اليمين، إلى الصورة، وليس من الضروري أن تدقق فيها، فهي واضحة كل الوضوح ، فإلى اليمين، القرد جد الإنسان الأول، وفق نظرية العلامة " داروين " سامحه الله، وإلى اليسار، أحدث حفيده لذلك الجد، ولا بأس أن تتصور مرسل هذا القول بين الاثنين، ليمثل " الحلقة المفقودة" .

ولعلك مراراً، رأيت الجهالة " السعادني " أو " القرداتي " يصطحب جده؛ ليعرضه على أحفاده في شتى الأوضاع، والناس من حولهما يضحكون، ولا أدري، أيضحكون على

إنسانيتهم، التي رأوها في القرد، أم على بقايا " القردنة " التي تنعكس في " القرداتي "، ولكنه على كل حال تجاوب يثير السخرية والشفقة معاً.

يشفع لمسلك الجهالة " القرداتي " أنه يريد أن يعيش عن طريق اصطحاب جده، ويشفع للعلامة " داروين " تسلسل نظرية التطور، إذ لا يضير الإنسان ان يلتفت إلى الوراء؛ ليرى كيف كان، وكيف أصبح، ويشفع لمرسل هذا القول، إذ رأى الإنسان يعود إلى الوراء، ان يتهمه " بالإنسان الممسوخ " وأي مسخ أبشع من التطور العكسي.

يرى " سويفت " في " رحلات جوليفر " أصنافاً من المضحكات، كلها سخرية بالبشرية، ولكنه في الأخير، يطمئن نفسانيا أبشع مخلوق سماه "yahoo ياهو" . وأنا بطبعي أكره الوسط والبقاء فيه ، فأحب من الإنسان أن يكون، إما قرداً أصيلاً أو إنساناً يحاول أن يكون ملاكاً، اما أن يكون وسطاً، فهذا هو الإنسان الممسوخ، " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ".

20) النجس الوفي

سلامة قيمتك يا ... يا ... يا يا ... كلب، حتى ولو غضب القارئ ، فأنا معجب بالكلب كاره للجرو يعني ابن ...

ولست أول معجب بهذا الحيوان، فقديماً أعجب الناس بالكلاب فكان " كليب " سيد تغلب، وكان " الكلاب " والد قصي، وكان ما كان، وقديماً أيضاً أعجب الناس بالحيوانات وطبائعها حتى الحيوانات المنفرة.

قيل لبزرجمهر وزير الفرس وحكيمها: (بم أدركت ما أدركت ؟) قال:" ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، ووفاء كوفاء الكلب" ، وأنا واثق من أن أحد الملوك لم يغضب من الشاعر، وان كان قد تظاهر بذلك، حين مدحه قائلاً:

انت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

ثم لا غرابة بعد ذلك أن نسمع شاعراً يذم قبيلة باهلة لقلة وفائها بقوله:

ولو قيل للكلب يا باهلي تأثر الكلب لهذا النسب

ولو جاز لي أن اتفلسف، فأحاول أن أرسم خطوطاً للإنسان " الكامل " على حد التعبير للجأت إلى قانون الإعارة والتأجير من الأخوة الحيوانية، فآخذ من الأسد شجاعته، ومن الجواد نبله، ومن الجمل صبره، ومن النمل الدأب المتواصل، ونستغني بالمرة عن مكر الثعلب ودهائه، ففي مكر الإنسان وقوته العقلية الكفاية.

ونتوج هذه الصفات بوفاء الكلب، وان كان أهل الفقه قد أجمعوا على أن الكلب حيوان نجس، (فالنجس) الوفي خير من (الطاهر) الغادر.

21) الطائر الممسوخ الخفاش

في القراءة الرشيدة – قراءة من زمان – درس عن الخفاش ، بلغ من قوة انطباعه في أذهان التلاميذ أنهم كانوا عندما يذكرون أجزاء القراءة يعددونها بأرقامها ما عدا الجزء الثاني ، فقد كانوا يقولون عنه : " القراءة الرشيدة ـ جزء الخفاش".

وفي الطفولة الرشيدة ، إن جاز هذا التعبير منا ، ننعم باللعب المتأخر في الأمسيات ، وكثيراً ما كان يصرفنا عن اللعب حفيف الخفافيش وهي (تخت) من بيننا وفوق رؤوسنا ، فنأخذ في مطاردتها حينا وبعد (وطوط) طويلة وبدون جدوى ، نعود إلى ما كنا فيه .

وفي سن الرشد العقلي لا الزمني، يقف الإنسان مستغرباً من أمر الخفاش ، ثديان 1 وطائر ؟ هذا أمر غريب . طائر واحد وبلا ريش ؟ هذا أمر غريب . ثديان ، وطائر ، وأجنحة مطاطة 2 ثم وجه قبيح ؟ لا، أعوذ بالله من الخفاش الرجيم .

ثم بعد هذا كله لا يطير خفاشنا الا في الظلام ، وإن طار لا يرتفع ، بل يكاد يلمس الأرض وإن ارتفع يكاد يلتطم بمن عليها . يا خسارتك أيها الخفاش ، خسارة أن تكون طائراً .

فالوجه القبيح ، والظلام ، والجناح الصامت ، والعجز عن التحليق بل عن الارتفاع ، هذه هي العناصر الأربعة التي تلعب دورها في إبراز هذا الحيوان ، وهذه العناصر بعينها عناصر الرذيلة . إن أحاطت شخصاً مسخته ، وإن أحاطت حيواناً مسخته أيضاً؛ ولذا لا غرابة أن نتساهل فنعطي الخفاش لقب الطائر الممسوخ .

ومرسل هذا القول قريب الشبه من الخفاش في سحنته، وإن كان يلذ له أن يوهم نفسه بأنه يبعد عن العناصر الخفاشية الأخرى بعد الإنسان عن الطائر ، ولا يزال يذكر إطفاء الأنوار بالخير . رحم الله تلك الليالي فقد كان سواد الليل فيها (يضفي) على قباحة الشكل بقدر ما كان (يسدل) على جمال الأشكال الأخرى . ليالي إطفاء الأنوار خير لباس موحد اقتضته ضرورة الحرب، وقد كان لباساً ساتراً على كل الأحوال ، وكم من مصلحة الممسوخ أن يستتر .

وما ذكرت الليل وخطر ببالي الخفاش وخفافيش البشر إلا وترحمت على حكيم الفرس القديم " زرادشت ـ أنار الله ظلمة قبره ـ الذي ابتدع للبشرية أسمى أنواع العبادات في وقته .فاتخذ من الظلمة رمزاً للشر، واتخذ من النور رمزاً للخير، فجعل الليل اله الأول وجعل النهار اله ثان، وراح بعدها ينسخ من الصراع بين الظلام والنور قصة الصراع الدائم بين الخير والشر .

وكلما خطر الخفاش ببالي أعجبت بأهل الفن أيما إعجاب، فقد تقاربت العبقرية الفنية في مختلف الشعوب والأزمان عندما حاولت اليد البشرية أن ترسم صورة للشيطان. ففي كل الرسوم والصور الزيتية تجد وجه الشيطان يشبه وجه الخفاش، وجناحي الشيطان جناحي الخفاش وسواد الشيطان، سواد الخفاش، وراح الظلام يكون القاسم المشترك الأعظم بينهما ولمن شابههما من الفصيلة البشرية، فإن استوحشت بعد هذا ، من الحيوانات الليلية بخفافيشها وشياطينها ، ونفرت منها ، فلا تستغرب بعدها أن استأنست بأصغر طائر في الوجود ألا هو (اليراع) . فإن كان الخفاش بين الطيور الليليةشيطاناً، فاليراع ملاكه .

وما دمنا بصدد الطيور فلا بأس أن أقول إني أحب منها طيرين، النسر والفراشة، فالنسر يحلق في واضحة النهار ، ويحلق ويتناهى في التحليق، وحتى إن هوى بعدها صريعاً ، والفراشة أعجز من أن تحلق، ولكنها تعرف كيف (تهوي) ، من زهرة إلى أخرى ، والزهر ـ سموه (نواراً) والنوار من النور .
وعشقي لهما أقوى من حب النسر للأجواء، ومن حب الفراشة للنور ، حتى ولو خرا صريعي حبيهما .
إذا كنت طائراً فاما نسراً وإن هويت ، أو فراشة وإن احترقت ، لكن لا تكن خفاشاً .

22) الحيوان المتلون الحرباء

... وكأني ببعض القراء يقول: ما لمرسل هذا القول والحيوانات ؟ 1 عال . لا ينقصنا إلا الحرباء . هذا شيء يكش له البدن . ومع ذلك نقول : من زمن بعيد ـ وقبل أن يتبلبل الناس في لباس الرأس، كان الصبي منا عندما يفاجأ بحرباء يخلع طربوشه ويغطيها به ثم يردد " يا حرباء شختي بختي ، بالله توريني بختي " . وكلمة شختي لا معنى لها في قاموس العامية الفصحى ، بل أغلب الظن أنها كلمة عكازية لتسجع مع (بختي) وبختي مفهومة، غير بختك أيها القارئ.

ولست من الثقات في علم الحيوان، وإنما أنقل إلى القارئ ، على سبيل الإعارة والتأجير ، قول أحد العلماء في هذا الصدد :" من أغرب الأمثلة على الاختباء في الطبيعة ، هو ما تراه في الحرباء التي تستطيع أن تغير لون جلدها بحسب المحيط الذي تعيش فيه، فهي تستطيع أن تتلون باللون الأصفر والأخضر والرمادي أو الأسود أو البني أو البرتقالي مما يجعلها حقاً تستطيع الاختباء في أي مكان توضع فيه ."
وهكذا ترى أن الطبيعة زودت هذا المخلوق ، بجهاز فني للتعمية أو التستر أو (الكاموفلاج) بلغة الحروب الحديثة ، والحرباء كما لا يخفى، أشد الحيوانات حاجة إلى التستر، والتعمية، أليست أضعف المخلوقات همة؟ ثم أليست ألبدها حركة وسيراً ؟ إذن فلتكن المقدرة العجيبة على التلون وسيلة للتستر، وليكن طول اللسان (يقال أن طوله متران) خير عوض عن البلادة.

ومرسل

هذا القول يشارك الحرباء في طول اللسان، وإن كان أعجز من أن يتلون. وقانا الله ووقاك سر التلون وما ذكرت الحرباء إلا وعجبت بزميلتها (المصفحة) السلحفاة، صاحبة (التنك) الحصين والحركة البطيئة(دبابة قسم الزواحف). وما خطر ببالي لسان الحرباء الدقيق الطويل في (لطشه) الخاطف للذباب والحشرات، ألا وأعجبت بالعنكبوت وهو يرمي بخيوطه عرض الحائط لينسج تلك المصيدة الهندسية الرائعة، فالسلحفاة في دفاعها ، والعنكبوت في شراكه، يمثلن أنبل وأدق فنون الدفاع والهجوم في معركة الحياة ، والبشر في حروبهم ما زالوا ينسجون على منوال هذه الحيوانات الفنانة.

ويقول الخبراء في دراسة الأجناس البشرية أن جلد البشر أقل الجلود قابلية للتلون ، ولكن علماء النفس يقولون أن النفس البشرية تبذ الحرباء في التلون ، ولعل من الانصاف أن نطبق المذهب (الحرباوي) عند تفسير التلون البشري ، فنقول أن الضعف هو علة العلل ، فإن كنت ضعيفاً في خلقك تلون سيرك وتبللت مذاهبك وسطت عليك ألوان أخرى ، وإن كنت ضعيفاً في خلقك ، تلون سيرك وتبلل سبلك في الحياة مع الله والناس والحيوان، وإن كنت ضعيفاً في جسمك فستتلوى وتتلوى قبل أن تذوى وتذوب وتموت.
أيها الإنسان الكريم كن قوياً يكن لك لون واحد واصح ان تشرق به ، وإن كلح هذا اللون فابق (مكلحاً) ولكن لا تكن حرباء .